(٤)

مصر بين الإسلام.. والتغريب

وعلى الجبهة المصرية.. جاءت ثورة سنة ١٩١٩م فداوت الكثير من جراحات تلك النزعات الطائفية العنصرية الانعزالية..

* فاجتمعت الأمة وأجمعت ـ بدياناتها المختلفة: الإسلام والمسيحية واليهودية ـ وتياراتها الفكرية المتنوعة ـ إسلاميين وعلمانيين ـ على الهوية «العربية الإسلامية» لمصر.. وتم النص على ذلك فى دستور سنة ١٩٢٣م: **«الإسلام هو الدين الرسمى للدولة.. واللغة العربية هى لغتها الوطنية والقومية»..**

* وأعلن ابن مصر البار مكرم عبيد باشا [١٨٨٩ ـ ١٩٦١م] ـ وهو أحد أبطال ثورة سنة ١٩١٩م وقادتها ـ عن عروبة مصر والمصريين ـ حتى قبل قيام جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥م ـ فكتب سنة ١٩٣٩م يقول:

«المصريون عرب.. وتاريخ العرب سلسلة متصلة الحلقات، لا، بل هو شبكة مُحْكَمة العقد.. ورابطة اللغة، والثقافة العربية، والتسامح الدينى، هى الوشائج التى لم تفصمها الحدود الجغرافية، ولم تنل منها الأطماع السياسية منالاً، على الرغم من وسائلها التى تتذرع بها إلى قطع العلاقات بين الأقطار العربية واضطهاد العاملين لتحقيق الوحدة العربية التى لا ريب فى أنها أعظم الأركان التى يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة فى الشرق العربى.

وأبناء العروبة فى حاجة إلى أن يؤمنوا بعروبتهم وبما فيها من عناصر قوية استطاعت أن تبنى حضارة زاهرة.

نحن عرب، ويجب أن نذكر فى هذا العصر دائمًا أننا عرب، وحدت بيننا الآلام والآمال، ووثقت روابطنا الكوارث والأشجان، وصهرتنا المظالم وخطوب الزمان.

نحن عرب من هذه الناحية، ومن ناحية تاريخ الحضارة العربية فى مصر، وامتداد أصلنا السامى القديم إلى الأصل السامى الذى هاجر إلى بلادنا من الجزيرة العربية..

فالوحدة العربية حقيقة قائمة موجودة لكنها فى حاجة إلى تنظيم، فتصير كتلة واحدة، وتصير أوطاننا جامعة وطنية واحدة..»[1].

هكذا تحدث مكرم عبيد باشا ـ حديث العالم ـ عن عروبة مصر والمصريين حضارة.. بل ومن ناحية الجنس والعرق.. فالأصل القديم للمصريين سامى.. وهم قد تواصلوا مع الساميين العرب الذين هاجروا إلى مصر فى التاريخ السابق على ظهور الإسلام[2].

كما تحدث ـ سياسيًا ـ عن الوحدة العربية، التى يجب أن تجعل كل أوطان العالم العربى **«جامعة وطنية واحدة»..**

وهذه الحضارة، التى أسهمت مصر فى بنائها وبلورتها، والتى تنتمى إليها هى «عربية.. إسلامية».. وعن إسلامية مصر الوطن والحضارة أعلن مكرم عبيد، فقال:

«نحن مسلمون وطنًا، ونصارى دينًا.. اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك، وللوطن أنصارًا.. واللهم اجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين»[3].

* نعم.. حدث هذا بفعل تأثيرات ثورة سنة ١٩١٩م.. وتطلع الكثيرون إلى مستقبل تتجاوز فيه الأقلية الأرثوذكسية شباك الغواية الاستعمارية..

لكن قطاعات مؤثرة من نخب هذه الأقلية قد ظلت متطلعة إلى السير على ذلك الطريق.. طريق الغواية الاستعمارية.. والاستعانة بالغرب ـ وخاصة الثقافى والحضارى (أى التغريب) ـ لإلحاق مصر بالغرب، وتحويل رسالتها و«بوصلتها» الحضارية عن قبلة «العروبة والإسلام».. فلقد ظل «مشروع المعلم يعقوب» يخايل هذه القطاعات من النخبة النصرانية المصرية ـ العلمانية منها والكهنوتية ـ حتى لقد أطلقوا

---

(١) مكرم عبيد ـ مجلة [الهلال] عدد إبريل سنة ١٩٣٩م.

(٢) للمقريزى كتاب نفيس فى هذا الموضوع، عنوانه: [الإعراب عمن نزل بأرض مصر من الأعراب] تحقيق: د. عبد المجيد عابدين. طبعة القاهرة.

(٣) صحيفة [الوفد] عدد ٢١/ ١/ ١٩٩٣م.

على هذا «المشروع» وصف: «المشروع الأول لاستقلال مصر».. دون الكشف عن طبيعة هذا «الاستقلال» ـ الذى لم يكن استقلالاً عن الاستعمار الغربى ـ العدو التاريخى لمصر والشرق ـ وإنما كان استقلالاً عن الهوية العربيةوالإسلامية لمصر.. أى عن «الذاتية» و«الرسالة الحضارية» لمصر..

ويشهد على هذه الحقيقة، ما كتبه الدكتور لويس عوض [١٩١٥ ـ ١٩٨٩م] عن المعلم يعقوب ـ بعد قرابة القرنين من هلاكه ـ فلقد وضعه فى مصاف عظماء الأمة وأبطالها، من مثل: محمد على باشا الكبير [١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ ـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م].. وعلى بك الكبير [١١٤٠ ـ ١١٨٧هـ ١٧٢٨ ـ ١٧٧٣م].. وجمال عبد الناصر [١٣٣٦ ـ ١٣٩٠هـ ـ ١٩١٨ ـ ١٩٧٠م]!!..

كما وصف لويس عوض **اللغة العربية بأنها «لغة دخيلة.. وميتة.. وأنها الأغلال التى يجب تحطيمها»!**[١]..

وذلك فضلا عن هجومه على عروبة مصر.. وعلى العروبة عامة.. ووصفه لها بأنها «عنصرية.. وفاشية.. وأسطورة من الأساطير»![٢].

* ومن قبل لويس عوض، دعا سلامة موسى [١٨٨٨ ـ ١٩٥٨م] إلى الذوبان الكامل فى الغرب ـ حتى عندما كان هذا الغرب يحتل مصر!.. ودعا إلى الانسلاخ الكامل عن العروبة والإسلام، فقال:

«.. أنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب.. وإذا كانت الرابطة الشرقية سخافة، فإن الرابطة الدينية وقاحة!.. ونحن نريد العامية، لغة الهكسوس، لا العربية الفصحى، لغة التقاليد العربية والقرآن»![٣].

.. وهكذا ظل «مشروع المعلم يعقوب»: سلخ مصر عن العروبة والإسلام، وتغريبها.. يخايل قطاعات من النخبة الأرثوذكسية..

* * *

(١) د. لويس عوض [تاريخ الفكر المصرى الحديث] جـ١ ص ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٩. طبعة دار الهلال ـ القاهرة سنة ١٩٦٩م.

(٢) [الأهرام] فى ٧، ٢٠ إبريل، ١١ مايو سنة ١٩٧٨م. و[السياسة الدولية] عدد أكتوبر سنة ١٩٧٨م.

(٣) سلامة موسى [اليوم والغد] ص ٥ ـ ٧، ٢٠٠، ٢٠١ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

لقد بدأ التغريب ـ فى الشرق ـ مسيحيّا . . جاءت به مدارس الإرساليات التنصيرية الفرنسية التى أقامتها فرنسا على أرض لبنان، والتى استقطبت فيها العديد من أبناء الطائفة المارونية ـ الكاثوليكية . . ذات الهوى الفرنسى ! ـ . . وذلك لصناعة نخبة تقدم النموذج الحضارى الغربى إلى الشرق، ليكون بديلاً عن النموذج الحضارى الإسلامى . . وذلك عن طريق تخريج **«جيش ـ ثقافى ـ متفان فى خدمة فرنسا فى كل وقت»! . . وحتى «تنحنى البربرية العربية ـ [!!!] ـ لا إراديّا أمام الحضارة المسيحية لأوربا»!** ـ بتعبير القناصل الفرنسيين ببيروت فى القرن التاسع عشر ـ [1] .

وإذا كان التغريب قد تعدى نطاق الطوائف المسيحية الشرقية، فشمل قطاعات من النخب المسلمة، فلقد ظل ـ فى الإطار الإسلامى ـ خيار قطاع محدود من النخبة، بينما تطور ـ على الجانب المسيحى ـ ليصبح خيار المؤسسات الفاعلة، التى رأته البديل عن النموذج الإسلامى، وخاصة بعد تصاعد المد الإسلامى عقب إفلاس النموذج العلمانى ونماذج التحديث على النمط الغربى . .

فلما حدث تغرب الكنائس الوطنية الشرقية ـ بتأثير الحداثة الغربية . . والمذاهب المسيحية الغربية . . ومجلس الكنائس العالمى ـ عمت بلوى تغرّب مراكز التوجيه الدينى والعلمانى لدى أغلبية المسيحيين الشرقيين ! . . على حين ظل التغريب فى النخبة المسلمة نتوءًا شاذّا لا تأثير له فى الشارع الإسلامى . . فلما تعاظم مد اليقظة الإسلامية المعاصرة دُفعت هذه النخبة المسلمة المتغربة إلى «نفق الإفلاس» ! . .

***

(١) من محفوظات إرشيف وزارة الخارجية الفرنسية لسنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٤٢، ١٨٤٨، ١٨٩٧، ١٨٩٨م ـ انظر : محمد السماك [الأقليات بين العروبة والإسلام] طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.